المحاضرة الأولى: سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية

أدى ضعف وتقاتل مسلمي غرناطة إلى قيام الدولة الاسبانية الحديثة على أنقاض الحضارة الإسلامية في الأندلس –غرناطة– سنة 1492م، وبداية حروب الاسترداد *Reconquestra* والتي تندرج ضمن إطار الحروب الصليبية الجديدة، أين انطلقت بالتوسع الأيبيري على أراضي المغرب العربي.

استغل المحتلون ضعف شوكة السلطات المغاربية وتشتت حزبهم وتناحر الإخوة الأشقاء لأجل المصلحة الفردية لا العامة، وكل هاته الإشكالات أعطت مصوغا قويا ودافعا يضاف إلى دوافع الصراع الحضاري الأوربي الإسلامي لأجل احتلال غرناطة سنة 1492م.

1-أسباب سقوط غرناطة1492م

– لعل أحد أهم الأسباب التي أدّت إلى سقوط الجزيرة الاندلسية عامة وغرناطة خاصة هي ضعف الوازع الديني والروحي لدى قادة المدينة، فرغم التفوق العلمي والمعماري والحضاري، إلاّ أن فقدان الحافز الديني جعل الفتوحات والجهاد ضد الغزاة الاسبان، فمثلا: كان الحافز الديني هو الذي جعل الأخوين بربروسة وعلى قلة مواردهما وتسليحهما ينتصران على الجيوش الاسبانية ذات العتاد والتنظيم العسكري، فعروج وخير الدين لم ينظرا إلى حربهما ضد الإسان إلى أنها حرب مجردة من الوازع الديني، وإنما هي جهاد لموت في سبيل الله، وهذا ما يمكن ان نستشفه من خلال الاطلاع على مذكرات خير الدين بربروسة.[1]

[1] **ينظر**:خير الدين بربروسة، مذكرات خير الدين بربروسة، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة 2010.

– احتلال جميع الأراضي الأندلسية وبقاء غرناطة معزولة، ففي الوقت الذي كانت فيه القوة المسيحية تتقوى وتتوحد بالاحتلال تلو الآخر، كانت الدولة الاسلامية تتفكك تدريجيا إلى أن بقيت غرناطة معزولة ومتفردة.

– التوقف عن المقاومة واتخاذ سبيل المهادنة ودفع الضريبة، جعل الجيش خاملا وغير مستعد للحرب، كما أدى إلى استيلاء الحلف المسيحي على القلاع والأراضي المتاخمة للمدينة، وهكذا حوصرت غرناطة، وحتى لما قال الملك أبو عبد الله في رسالة تعود لسنة 1478م "أنّ غرناطة لن تدفع الضريبة مجددا، وإنّ أموالها ستخصص للرماح والأسلحة وذلك لأجل الدفاع عن ثغورها"، فإنه تأخر في اتخاذ القرار حيث تمكن الإسبان من الاستيلاء على الحدود المتاخمة لغرناطة حيث شكلت سنوات 1478م، 1479م و 1480 استلاء قشتالة وأراغون على الكثيرمن القلاع وتجاوز الحدود المعترف بها سابقا.[2]

– التشتت الداخلي والصراع على السلطة، ففي الوقت الذي تحالف فيه ملك قشتالة وأراغون ضدّ مسلمي غرناطة "دخلت غرناطة في حقبة من التشتت والتمزق استفاد منها الاسبان".[3]

– كان للنساء دور في تغذية هذا الشقاق والخلاف، حيث تزوج أبو الحسن أواخر حكمه فتاة نصارنية تدعى إزابيل دي سوليس[4] أو كما تسميها المصادر العربية ثريا الروميةّ[5]، والتي أسرت

---

[2] Catherine Gaignard, Maures et chrétiens à Grenade 1492-1570, EditionsL'Harmattan, 1997, p.16.

[3] انبعاث الاسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، علي المنتصر الكتاني، 2005، ص

[4] بلقاسم صديقي، غرناطة بين الصمود وحتمية السقوط وأثرها على المغرب العربي والمواقف الإسلامية منها، مجلة الدراسات التاريخية، م20، ع.1،جامعة الجزائر أكتوبر 2019م، ص 60-61.

[5] عدنان خلف سرهيد، التأثير الحضارى المتبادل بين الآندلس الإسلامية وأسبانياالنصرانية، دار حميثرا للنشر والترجمة، العراق، 2018، ص68.

في إحدى الحروب، وهي ابنة أحد القادة الاسبان المعروفين المدعو سانشو خيمنيث دي سوليس، حيث أنجبت له ثلاث اطفال تنصر اثنان منهما بعد سقوط غرناطة، وأخذا اسمي فرناندو وخوان، كما أن أمهما عادت إلى نصرانيتها الأولى، حيث لعبت دورا بارزا في إسقاط المملكة[6]، وتأليب الملك أبو الحسن على أبنائه من زوجته الأولى عائشة الحرّة، [7] إلى أن وصل به الامر إلى سجن زوجته عائشة في أحد الأبراج، ومحاولته التخلص من ابنه أبو عبد الله محمد الثاني عشر (1460 – 1527)، ففرت عائشة من القصر ومعها أولادها فبايعها الشعب الغرناطي، وهكذا انشق المجتمع إلى جبهتين متقاتلتين.

ولم يتوقف هذا النوع من الزواج عند الأمير وحده فقط، بل تعداه إلى حاشيته وساكنة المدينة، فتزوج الكثيرون من النصرانيات، ومن حاشية السلطان الذين تزوجوا من النصرانيات مثل: "زواج ابن الخطيب من جارية إسبانية... إلخ"، وهكذا ظهر جيل جديد عرف بالمولودين، [8] حيث تأثر هؤلاء المولودين الجدد بدين ونمط حياة أمهاتهم المسيحيّة.

– لعلّ أيضا من الأسباب التي ساهمت في بداية تآكل وسقوط الأندلس هو عملية التدجين التي اتخذتها السلطات الإسبانية ضد أولئك الباقين من المسلمين بعد احتلال أراضيهم، حيث كسب الطرف الإسباني جانبهم سواء من خلال ترغيبهم والابقاء على متلكاتهم أو ترهيبهم وذلك بإلزامهم باعتناق النصرانية، وكان لهذا التحييد دور بارز في عدم توحد العامة المسلمة ضد

---

[6] محمد بن عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس، ج07، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

[7] بلقاسم صديقي، مرجع سابق، ص63.

[8] **عدنان خلف سرهيد، مرجع سابق، ص 69.**

التحالف النصراني، بالإضافة إلى "انهم عيّنوا في المناطق التي تم احتلالها من قبل الاسبان لتسيير موارد هاته المدن من خلال إدارة شؤون العمارة والبناء والري".[9]

2- سقوط غرناطة سنة 1492م.

بعد سقوط أغلب مناطق الأندلس وبقاء غرناطة معزولة في شبه الجزيرة الأيبيرية، سعى المتحالفون في مملكتي أراغون وقشتالة إلى إسقاط غرناطة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1474-1492م.

وقد اشتدّت هاته المعارك خلال الفترة بين سنتي 1481_1491م، وذلك في حكم الملكة إيزابيلاوفيرديناند الثاني ملك أراغون، ولم تكن هاته المعارك قارة ومستقرة وإنما عبارة عن مجموعة معارك تندلع في الربيع وتتوقف في الشتاء، وحتما فإن المشاكل الداخلية قد أثرت بشكل واضح على المدينة في النهاية، ففي الوقت الذي كان من الجدير بالسلطة ومعارضيها تبني اتحاد داخلي، وتوجيه صراعاتهم إلى الخارج، رضخوا إلى الاستكانة والهوان وقاموا بقبول الضريبة التي فرضت عليهم من قبل الكاستيل.

وكان التوسع الاسباني حالة طبيعة خاصة مع وجود ملكين متعصبين للمذهب الكاثوليكي مثل الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا، حيث بدأ التوسع بمراسلة الملك الغرناطي أبي عبد الله محمد بن علي يطلبان منه تسليم واد آش وألميرية على أن يبقى حاكما على غرناطة، شرط أن يكون خاضعا وتابعا لهما سياسيا، فرفض أعيان ووجهاء وقادة وجنود المدينة فكرة

---

[9] فريق بصمة، التاريخ كما كان، كتوبيا للنشر والتوزيع، مصر، 2016، ص174.

الاستسلام ودعوا إلى المقاومة، وأمام هذا الحماس أبلغ عبد الله الملك الاسباني برفض عرضه، وتمكن المسلمون من تحقيق عدد من الانتصارات ضد النصارى، حتى أنهم توسعوا في المناطق المجاورة واستعادوا بعض القلاع والقرى؛ لكن سرعان ما استعاد الاسبان هاته الثغور خاصة مع امتلاكهم لمدفعية قوية.

وفي الوقت الذي كانت فيه القوى الإسلامية تعيش شتاتا وتناحرا، فإن مملكة أراغون تحت قيادة فيرديناند وقشتالة تحت حكم الملكة إيزابيلا، اتحدتا تحت لواء واحد سنة 1479م[10]، حيث أصبحت أموال الحملة تأتي من الكاستيل، وكان من نتائج الاتحاد أن استولى فيرديناند بتاريخ الرابع عشر ماي سنة 1482 على الحامة، ولعلّ وما زاد الطين بلة هو انشقاق الملك أبو عبد الله محمد الثاني عن والده أبو الحسن سنة 1483م، أين دخل الطرفان في حرب أرهقت الجانبان دون أن ينتصر فيها أي أحد سوى الإسبان، ولو اتحد الطرفان لكان صمود غرناطة سيطول أكثر.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الأمر فقد هزم الملك أبو عبد الله وهو يحاول فتح قشتالة وذلك في معركة لوسينا سنة 1483م وأخذ أسيرا؛ لكن الملك فرديناند كان ذكيا وحاول استخدام الملك أبو عبد الله لاحتلال غرناطة، ففي رسالة مؤرخة في أوت سنة 1483 كتب فيرديناند:"ولتحطيم غرناطة فقد قررنا تحريره –يقصد الملك عبد الله–، وذلك ليحارب والده"،[11]وفعلا تم توقيع اتفاق تحالف بين الطرفين ورجع عبد الله إلى عرشه.

وما إن غادر أبو عبد الله قشتالة حتى قضى سنوات يحارب والده، إلى أن استدبله الحكم سنة 1486، وفي خضم هذا الهوان والصراع المشتعل بين الابن ووالده حاصر فرديناند

[10]بلقاسم صديقي، مرجع سابق، ص63.

[11]Hillgarth JN, The Spanish Kingdoms, 1250-1516, vol. 2. Oxford University Press, 1976, p.381.

ملقةبين السابع ماي وإلى غاية الثامن عشر أوت سنة 1478م، ويذكر هيلغارت:"أن قائد القلعة دافع دفاع مستميتا رفقة المسلمين والمهتدين الذين رفضوا تسليم المدينة [12]؛ لكن وما إن سقطت المدينة في النهاية في أيدي الاسبان، حتى تم استعباد ساكنيها بتهمة المقاومة، وأما المهتدون فتم إحراقهم أحياء".[13]

سقطت بعدها سقوط باخةفي يد الملكين سنة 1489م،ومنذ تلك اللحظة بدأ الملكان فيرديناند وإيزابيلا يفكران بجدية في احتلال غرناطة، فعرضا على الملك عبد الله تسليم المدينة غير أن الأخير رفض الأمر رغم التحالف الذي كان يجمعه بالملكين، ولأنه رأى أغلب الأراضي التي وعد بها تأخذ منه واحدة تلو الأخرى، حيث لم يتبقى في نطاق حكمه سوى مدينة غرناطة وجبالالبشرات.[14]

وأمام هذا الوضع بدأ الملكان عملية احتلال غرناطة، بداية من أفريلسنة 1491م واستمر المسلمون في المقاومة دون استكانة ولا هوان، "ورغم أن الملك عبد الله كان يرغب في نهاية الأمربتسليم المدينة، إلا أن العامة رفضت القرار واستمرت في المقاومة رغم أنف السلطة، ويذهب هيلغارت إلى أن الكثير من مستشاري الملك عبد الله كانوا يعملون لصالح الملك فيرديناند طوال الوقت".[15]

وانتهى الطرفان في الأخير إلى توقيع اتفاق استسلام بتاريخ 25 نوفمبر سنة 1491م، كما لا يزال هناك اختلاف بين المؤرخين حول التاريخ الفعلي لاحتلال مدينة غرناطة، ويبدو أن

[12] Ibid, p.384.

[13]Prescott WH. The Art of War in Spain: The Conquest of Granada, 1481-1492. Greenhill Press; 1995, p207.

[14]Hillgarth JN,op.cit, p385.

[15]Ibid, p386.

مرحلة الاحتلال مرّت عبر مراحل خلال الفترة بين 1-6 جانفي سنة 1492م، وكان الدخول إلى المدينة وفق ما أوردته التسجيلات الاسبانية "دخولا سريا".[16]

3- انعكاسات سقوط غرناطة 1492م:

- ما إن سقطت غرناطة عام 1492م حتى بدأ سيل الرسائل ينزل على الملكين إليزابيثا وفيرديناند من كلّ صوب وحدب من الممالك المسيحية، في حين رأى العالم الإسلامي في هذا السقوط نكسة أساءت الفتح العثماني للقسطنطينية سنة 1452م.

- لعل أوّل ما تبع السقوط هو بداية إلحاق غرناطة بالإرث والفكر المسيحي، حيث "عيّن بعد الاحتلال مباشرة الكونت دي تينديا حاكما وهيرناندو دي تافيرا أسقفا على المدينة وكلاهما رجلان متعصبان، وأول أمر قاما به هو تحويل أكبر مساجد غرناطة إلى كاتدرائية".[17]

ورافق إعادة تحويل المساجد إلى كنائس إجبار المسلمين واليهود على اعتناق المسيحية، حيث أنّه "وبحلول سنة 1501م كان كل يهود الجزايرة الإيبيرية قد اعتنقوا المسيحية، في حين أجبر المسلمون على التنصر أو التهجير، فبحلول سنة 1526م كانت فكرة تنصير المسيحيين قد عمّت كل أرجاء إسبانيا، أين خصص في هاته السنة مراقبون في كل المدن الاسبانية مهمتهم ملاحظة سير عملية التنصير، مثل: أنطونيو دي خويفيراوغاسبر دي أفايوس.[18]

وتولّت عملية محاكمة المسلمين الذين بقوا على دين الإسلام محكمة التفتيش التي أسست سنة 1478، والتي لا تزال إلى يومنا هذا عار على الكنيسة الكاثوليكية، "حيث ذهب

---

[16] Richard Hitchcock, The Conquest of Granada in Nineteenth-Century English and American Historiography, Medieval Spain, Jan 2002, p.242.

[17] ALI KETTANI, Muslims in Spain after the fall of Granada : Suppression, resistance, eclipse, and re-emergence, Islamic studies. 1997, Vol 36, Num 4, Winter 1997, p.614.

[18] De L. P. Harvey, L P Harvey, Muslims in Spain, 1500 to 1614University of Chicago Press, 2005, p.55.

البعض إلى أنّها قتلت منذ تأسيسها وإلى غاية تعطيل نشاطها خمسة ملايين". [19] كما كان لها دور سلبي على أهل الأندلس، ففي "سنة 1499م استدعى الحكام الكاثوليك الكاردينال دي سينيروس إلى غرناطة وطلبا منه التضيق على المسلمين لعلّم يعتنقون الديانة المسيحية، وكان رد الكاردينال أن استولى على جميع المساجد وجعلها كنائس، ابإضافة إلى أنّه قام بالضغط على العلماء المسلمين للتحول إلى المسيحية".[20]

– هجرة آلاف المسلمين نحو المغرب العربي، أين غادر العديد من المسلمين الأرستقراطيين إسبانيا للاستقرار في أحد مدن الساحل المغاربي، وذلك حفاظا على معتقدهم وإيمانهم، ولعلّ أوّل المغادرين هو الملك أبو عبد الله الذي استقر في المغرب، في حين اختار بعض حاشية الملك برغبة منهم البقاء في غرناطة، أما العامة الفقيرة فقد اضطرت إلى البقاء في المدينة والمحافظة على دينهم ولو بالتخفّي وذلك لنقص مواردهم.[21]

– أدت عمليات التنصير والتهجير إلى اندلاع الثورة التي قادها إبراهيم ابن أميّة سنة 1500م، وما إن فشلت حتى بيع المجاهدون وعائلاتهم في أسواق العبيد، ونفس الأمر وقع في ألميريا وروندا.[22]

– استمرار حروب الاسترداد كما سما الاسبان في المغرب العربي، حيث أنهم احتلوا الكثير من المناطق، فاحتلوا المرسى الكبير سنة 1505، ووهران 1509م، وبجاية 1510، وطرابلس الغرب 1510م، كما اضرت الكثير من المدن الساحلية الجزائرية إلى دفع الضرائب وإعلان

---

[19] **ينظر**: كارين آرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة، طبعة أولى، دمشق 2005.

[20] **ينظر**: De L. P. Harvey, L P Harvey,op.cit.

[21] ALI KETTANI, op.cit, 614.

[2222] Ibid, 614.

الولاء للإسبان، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد توسع البرتغاليون والاسبان إلى أن وصلوا البحر الأحمر والمشرق العربي.